مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

يُخبرُ الله تعالى نبيَّه ﷺ أنه يعلَمُ جميعَ أحواله، وأحوالِ أُمَّتِه، وجميع الخلائق، في كُلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظة. وأنه لا يَعْزُبُ عن علمه وبصرِه مثقالُ ذرَّةٍ - في حقارتها وصِغَرِها - في السموات ولا في الأرض، ولا أصغرَ منها ولا أكبرَ إلاَّ في كتابٍ مبين. كقوله: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢)، فأخبر سبحانه أنه يعلَمُ حركةَ الأشجار وغيرَها من الجمادات، وكذلك الدَّواب في قوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣)، وقال

(١) يونس: ٦١.
(٢) الأنعام: ٥٩.
(٣) الأنعام: ٣٨.

تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ ﴾ (١)

وإذا كان هذا عِلْمُه بحركاتِ هذه الأشياء، فكيف عِلْمُه بحركاتِ المكلَّفين المأمورين بالعبادة ؟ كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ ﴾ (٢)

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي: إذْ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم، راءُونَ سامعون. ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريلُ عليه السلام عن الإحسان، قال: « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٣)

أخي المسلم: ذاك ما ذكره ابنُ كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١ ﴾ ولا شَكَّ أن الإخبارَ بذلك ومخاطبةَ النبي ﷺ به، له دَلالته في عِظَمِ شأن المخبَرِ به، والمخاطَبِ ﷺ، فالمُخْبَر به شمول العلم، وشمول الرعاية، وشمول الرقابة ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ

---

(١) هود: ٦.

(٢) الشعراء: ٢١٧- ٢١٩.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ رقم ٤٨.

عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾، والمخاطَب هو رسولُ الله ﷺ بقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ والله يخبره أنه يعلم جميعَ أحواله. وفي ذلك ما فيه من مُؤانسةٍ له، وحفاوةٍ به، ورعايةٍ لجميع أمره؛ فالله معه في كُلِّ شأنٍ، يشهد ويسمع ويرى.

ومَن تدبَّرَ هذه الآية أيقنَ أن الكونَ كُلَّه - بما فيه ومَن فيه - ليس مَتروكاً بلا رعايةٍ أو رقابةٍ. واليقين بذلك له أثرُه البالغ في حياة الناس وروابطهم، له أثرُه في دَعوتهم إلى الخير، وكَفِّهم عن الشر؛ فهذا وذاك مُسَجَّلٌ عليهم، يرونه حاضراً أمامَ أعيُنهم.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾ (١)، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ (٢)

ولا تَسَلْ عمَّا يكونُ في حياةِ الناس من أَمْنٍ وهُم يوقنون ألاَّ شيءَ من أمرهم بِخَافٍ على ربِّهم، ما يُسِرُّونَ به وما يجهرون.

إن الذي يُوقِنُ أن الله يعلمُ ما توسوس به نفسُه، يُحْسِنُ نيَّته، ويُحسِنُ عملَه، والذين لا يوقنون بذلك تراهم صَرْعَى أهوائهم ومقاصدهم، يُهلكون أنفسهم وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ! ويمضي الأجلُ المُسمَّى لهم وهم لم يتزوَّدوا بزادٍ ينفعهم، ولم يُقدِّموا شيئاً لِغَدِهم؛ لأنَّ الغَدَ ليس في حُسبانهم.

---

(١) آل عمران: من الآية ٣٠.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

إنَّ الذي يَفْقِد اليقين بما تضمنته هذه الآية ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ يخسر نفسَه، ويخسر دُنياه وآخرته؛ لأنَّ الأمنَ الذي يُرجَى مَنُوطٌ بصفاتٍ لا تتحقَّق إلاَّ باليقين برقابة الله الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

إنَّ الجريمةَ - وهي نِيَّةٌ مُبيَّتَةٌ في نفس صاحبها - تَعْجَزُ قُوى البشرِ قاطبةً أن تُحيط بها؛ فلا مقدرةَ لهم على مَنْعِها قبل أن تُرَى في واقعٍ، ولكن اليقين بأن الله عليمٌ بذات الصدور يجعل الإنسانَ يحذَرُ أن يَرى اللهُ منه نِيَّةَ سُوءٍ. ونِيَّةُ السُّوءِ تدمِّرُ صاحبَها قبل أن تُدمِّر غيرَه.

ومَن راقَبَ ربَّه وَقَى نفسَه نِيَّةَ السُّوءِ قبل أن تمتدَّ بسُوءٍ إلى غيره، وهو يعلم أنه لن يفلت من حسابٍ وجزاء ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (١)

إن الإخبار بأن الله لا يعزُب عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، له أثرُه في إعداد إنسان الخير الذي يخشى ربَّه ويرجو رحمته ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝ ﴾ (٢)

(١) البقرة: من الآية ٢٣٥.
(٢) المؤمنون: ٦٠، ٦١.